

المحاضرة الأولى : لمحة عن تقنية السبر

سنترك في هذه المحاضرة إلى أصول السبر وتاريخ صناعته في العالم من خلال العناصر التالية :

اولا - ماهية السبر

1- أصل كلمة سبر:

يعود استعمال المصدر السبر أو sondage إلى القرن 13، وأصله من sund التي تعني بحر أو مضيق وهي تمثل أيضا وسيلة تستعمل لقياس عمق الماء وفي القرن 16 ظهر السبر الطبي la sonale chirurgicale واستعمل الفعل "sonder" لتسمية حركة ذلك الذي يبحث أن يستقصي سرا....
 فظهرت كلمة (مستبر) sondeur في 1690 أما (السبر) sondage، فقد ظهرت سنة 1972.
 وتختلف تطبيقات البلدان الأنجلوساكسونية لكلمة "سبر" فهناك تفريق ما بين السبر البحري le sondage maritime، السبر الجيولوجي le sondage geologique، السبر الطبي le sondage medical سبر الآراء le sondage d'opinion، المعاينة الإحصائية (l'échantillonnage) (Sampling). أما في فرنسا، فقد استعملت تسمية وحيدة هي "السبر" Bondage لكل عمليات المعاينة الإحصائية مهما اختلفت مجالات التطبيق.

2- المعنى الاصطلاحي للسبر:

يدل معنى كلمة سبر على " تحقيق بواسطة الاستمارة يجري على عينة ممثلة من مجتمع أصلي".
 ولما كان معنى السبر مرفوقا دوما بمعنى التحقيق. فإنه من الضروري تحديد معنى هذا الأخير أيضا ويعرف التحقيق على أنه "دراسة لظاهرة اجتماعية عن طريق استمارة أو سبر يقام على أساس معاينة ملائمة لمجتمع البحث.

3- التعريف الإجرائي للسبر:

من المتعارف عليه أننا نسمي (سبرا) تحقيقا يتناول بالدراسة جزء من المجتمع يسمى عموما عينة من المجتمع الذي نهتم به بهدف قياس أو اختبار قيمة خاصية أو أكثر لهذه العينة أو قياس توزيعها. وهذا التحقيق الجزئي لن يسمى سيرا إلا إذا كان الجزء المختار من المجتمع قد اختير بصفة ممثلة للمجتمع.

ونلاحظ أن الشيء الذي جعل مفهوم السبر والتحقيق يدلان على معنى مشترك هو اتفاقهما على أن مبداء سبر الآراء هو استخدام المنهج التمثيلي الذي استنبط من فكرة أنه ليس من الضروري دراسة مجتمع بحث كامل للوصول إلى معرفة خصائصه فالأفيد والأنجع دراسة عينة منه فقط، إن التحقيق بواسطة السبر يعتبر مؤسسة كبرى لا يمكن لشخص واحد تسييرها وهو يعني منهجا إحصائيا نفسيا للبحث، يسعى إلى ملاحظة وتحليل الظواهر الأكثر جماهيرية في المجتمع.

إن كلمة "سبر" كلمة محببة لدى البعض ومنبوذة لدى البعض الآخر، إلا أنه لا يترك مجالاً للحيد فهو مهار آراء متعددة ومتضاربة وأحيانا مقاومة، فمثلا تقليد التحقيقات بواسطة السبر أهمل كلية في ألمانيا في بداية القرن 19 وبداية القرن 20، حتى عام 1945 أين بدأت تباشر من جديد، فقد كان يعتقد بأن الأمر يتعلق باختراع أمريكي من جديد، ولم تستقبل هذه الوسيلة بارتياح ولم ير فيها أية مساهمة في التطور الاجتماعي للإنسان. وكثيرا ما كانت نتائج الاستطلاعات المنشورة من طرف مختلف وسائل الإعلام تدعو إلى الاندهاش. لقد كان يعتقد أحيانا بأنها مجرد موضحة عصرية. وبين هذا الاعتقاد المتحفظ والانتشار الكبير لتقنية الاستطلاعات وتطبيقها في جميع مجالات النشاط في الحياة الاجتماعية الذي يبين أهميتها ودورها الفعال، سنحاول التعرف على السير بالبحث في أصولها وتاريخ ظهورها الذي لا يمكن عزله عن تاريخ الإحصاء، ثم نتطرق إلى مجالات تطبيقه وتوسع صناعته في العالم.

ثانيا - بداية السبر:

1- أصول السبر من البحث الشامل (الإحصاء) إلى الجزئي (المعينة)

إن أصول السبر تجعلنا نتطرق إلى أصول الإحصاء، فإن كان السبر يعتمد أصلا على مناهج الإحصاء ومبادئه، فإن المعلومات الإحصائية المرقمة عن المجتمع ضرورية أيضا لمباشرته، والإحصاء الذي يقبل عموما على أنه مجموعة مناهج تساهم في معرفة مجتمع ما، وهو مصطلح يستخدم بمعناه الواسع بالرغم من أن استعماله يأتي من الإحصاء الديمغرافي وتعداد الأشخاص، ويعتبر بروز كلمة إحصاء حديث نسبيا مقارنة مع نشاط المعلومات. فالبحث عن المعلومات والبيانات والمعطيات قديم جدا وعريق عراقية الحضارات القديمة، وقد تطور استجابة للحاجة إلى معالجة المشاكل التنظيمية ومعرفة القيم والاتجاهات ومراقبة المجتمع.

إن بروز الحاجة الإحصائية إلى معطيات مرقمة تسبق بروز التسمية بعدة آلاف السنين، وهي في الأصل ناتج لرجال الدولة أو ما يقابلهم في ذلك العصر الراغبين في معرفة مقومات وعوامل قوتهم معرفة إحصائية شاملة ومثالية عن المجتمع وثرواته وسكانه وأملاكه إذا فكرة الإحصاء أو القائمة الإحصائية

la liste d'inventaire ظهرت بصفة طبيعية في التاريخ وبدقة عالية. إن أول الإحصاءات ظهرت قبل 5000 سنة، وتعد مصر أولى الأمم المنظمة للإحصاءات تدريجية للسكان منذ 2900 سنة قبل الميلاد على الأقل، ومنها وجدت قوائم الأشخاص وأملاك مدونة وإعلانات المصادر الدخل والنشاط في إطار تحقیقات إجبارية لهیئات إحصائية رسمية. كما لعبت الصين أيضا دورا كبيرا في تاریخ الإحصاءات حيث كانت تجري إحصاءات للسكان والمنتجات الفلاحية، في حين كانت ممارسة الإحصاءات غير منظمة وغير مؤسسة في الغرب، حيث أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى ركون البحث عن المعلومات إلى الخمول لعدة قرون باستثناء إحصاءات الإقطاعيين لما يملكون.

غير أن المنتصف الثاني من القرن 17 شهد التطور الرئيسي للإحصاء وذلك مع ازدياد الحاجة إلى المعرفة وتفسير الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، في فترة تزامنت مع تطور مدرسة الجير السياسية والإنجليزية مع روادها (جون غرانت) (1620 - 1674) John Grant و (وليم بيتي) (1623 - 1687) Petty، وكان مع إنشغالها التصميم والبحث لا محددات السلوك وقياسه ومحاولة التنبؤ في عدة ميادين باتخاذ الأسرة كوحدة للدراسة.

إن تقنيات المدرسة الإنجليزية ستستعمل بشكل كبير، وستشهد لظهور التحقيقات الجزئية أو السبور بالتوازي مع استبدال المحاولات الملاحظة والمعرفة الشاملة عن طريق الإحصاء الشامل، بإسقاط مبني على فحص جزء من المجتمع.

غير أن بداية القرن 19 شهدت عودة الإحصاءات بقوة، وأصبحت في العديد من البلدان كإنجلترا. الدانمرك، فرنسا والنرويج دورية ومنظمة. حيث شهدت في هذه الفترة نموا لا مثيل ولا سابق له، لا حين أخذت المعاينة تتدهور لحساب الدراسات الشاملة باستعمال حساب الاحتمالات حسب ما أقره رائد الإحصاءات والدراسات الشاملة في هذه الفترة، وهو البلجيكي (أدOLF كتلي) (1796-1874) Adolf Quetley والمناهض لتعميم النتائج الجزئية القائمة على مبدأ المعاينة والتمثيل.

غير أن السبور في هذه الفترة لم تختف كلياً حيث تواصل استخدامها خاصة في فرنسا، كاستعمالها من قبل (جون باتيست فوري) (1817) John Baptiste Fourier، وأيضاً ما بين 1891 و1893، لدراسة حول أجور العمال الفرنسيين والمحقة على عينة مختارة بمسافة 1/5، وقد أدى تراكم مثل هذه الدراسات - (وأهمها الإستبار الذي قام به (جون أنطوان كلبتال) John Antoine Claptal و1802 على 50 ألف شخص موزعين على 30 ولاية في فرنسا، وكذا استبار السير فريدريك مورتن) Sir Frederik Merton في بريطانيا في سنة 1800، والذي استخدم تقنيات إحصائية في حساب الخطأ

والقبو وتقنية حساب نسبة النمو السكاني، وكانت نتائجه مؤكدة تأكيداً مطلقاً " إحصاء 1801) - إلى توفر معطيات جاهزة تسمح بتطوير وتنمية منهجية للدراسات الجزئية في ميدان التطبيق الديمغرافي أساساً بتطوير حساب الاحتمالات وتؤكد إرادة الدولة في الحصول على معطيات رسمية، لكن يجب انتظار مائة سنة من أجل أن يعترف بالسبر وبأهميته. وأكثر من ذلك تكوين نظرية رياضية معتمدة على فكرة العشوائية.

2- بدايات السبر:

ظهرت سبور الآراء والمجتمعات ذات النظام البرلماني القائم على فلسفة التمثيل، وبدأت فعليا أمريكا بمناسبة الانتخابات الرئاسية لسنة 1824، لما ظهرت محاولتان لاستطلاع الرأي الحديث من خلال التحقيقات ما قبل الانتخابات، وسنحصل في رواج تقنية الاستطلاعات بمناسبة الحديث عن سبور الآراء السياسية، غير ان الرياضي النرويجي (أندرسن نيكولاي كيار) Anders Nicolai Kiaer * يعتبر أب المنهج التمثيلي، وقد اعترف بأعماله من طرف المعهد الدولي للإحصاء في 1903 وقد شهدت هذه الفترة فتح مجال واسع لنقاش حاد حول المنهج التمثيلي الذي لم يعرف نهاية إلا في مؤتمر روما حول السير والتمثيلية سنة 1925 .

بعد هذا التاريخ الحاسم للاستطلاعات، فإن نقاش الإحصائيين لم يتناول أبداً جدال جدوى الاستطلاعات ولكن تناول ذلك المظهر من التحليل والتحقق وعلى الخصوص مقابلة المعاينة بالحصص L'échantillonnage par quotas والمعاينة الاحتمالية la méthode probabiliste . كما تحول النقاش حول الاستطلاعات لينتقل إلى السياسة، وخاصة باستعمال الاستطلاع ، قياس الرأي العام منذ القرن العشرين والذي أعطى صبغة سياسية للنقاش حول الاستطلاعات